لمحة عن التصوّف عند ملا صدرا في "إيقاظ النائمين"

محمد خنساري*

ترجمة: طارق عسيلي

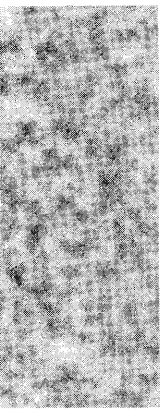

يعتبر كتاب "إيقاظ النائمين" للحكيم "صدر المتألهين الشيرازي"، من الكتب المختصرة والغنية في مجال التصوف والعرفان.

ويمكن من خلال القراءة التالية للكتاب، الوقوف على الجانب الذوقي في جهود الشيرازي، لبلوغ الحكمة التي أعاد تشييدها من خلال الجمع بين الكشف، والعقل، والوحي... خاصة أن مضمون "إيقاظ النائمين"، والمنهج المتّبع فيه، إنما يندرج في إطار الفعالية العرفانية. وبحسب تعبير حكيم شيراز: "المنهج المستخدم فيها (رسالة إيقاظ النائمين)، لا علاقة له بالبرهان؛ لأن العرفاء هم أهل الكشف والشهود... وهذا يتخطى الإدراك العقلي، والمشاعر النفسية".

* باحث من الجمهورية الإسلامية في إيران.

يُعدّ "إيقاظ النائمين" من المختصرات الغنية بالتعاليم الصوفية المحتوية على معانٍ دقيقة وراقية. فقد جمع الملا صدرا في هذه الرسالة زبدة الأفكار الصوفية الموجودة في الأسفار، وكتبه الأخرى. فهو نفسه يقول: "إنّ هذه الرسالة هي طائفة من رموز إلهية، وأسرار ربانية، ومسائل ذوقية، وعلوم كشفية، استبانت على صحائف الإظهار والإعلان، بقوة قهرمان الهداية والتوفيق في هذا الأوان، صور بها قيم المواد طبق الاستعداد على قلب أقل العباد". ثم يضيف: "لقد حقّقت في سالف الزمان، مسألة التوحيد في كتبي ورسائلي على طريقة النظر البحثي، حسبما فلت أفهام الحكماء والفضلاء. وما ذكرت ههنا، فهو نمط آخر إلهي، وأسلوب جديد قدسي، لا يعرف قدره إلا عالِم أحدي، ولا يدرك غوره إلا عارف حقيقي ومقدس. فالعقل لا يدرك محتويات هذا الكتاب المرتكزة على الإشراق، والحدس، والشهود الباطني؛ لذلك، فإنّ المنهج المستخدم فيها، لا علاقة له بالبرهان؛ لأنّ العرفاء هم أهل الكشف والشهود الباطني، لا أهل النظر والبرهان. ثم يقول بعد إنارة كشفية: "هذا يتخطى الإدراك العقلي، والمشاعر النفسية".

ومن جهة الذوق الأدبي، والجمال، والأناقة في التعبير، تصنَّف رسالةُ ملا صدرا هذه - إلى جانب كتبه الصوفية الأخرى - في الدرجة الأولى من حيث النوعية؛ فتعابيرها شعرية، ومثار إعجاب واستحسان، وهي مصحوبة بألفاظ مبتكرة، استخدمت على طبيعتها دون أي تكلّف. وقد استفاد من الفن الخطابيّ وزيّن جمله بالتشابيه، والاستعارات, خصوصاً بأبيات الشعر المقفّى، العربي، والفارسي، ورصّعها بالأمثال، والحكم. وأسلوبه في هذا الكتاب، يختلف بوضوح عن أسلوب كتاب الأسفار الذي يثبت فيه الحركة الجوهرية، ويناقش مسألة جسمية النفس، والجواهر، والأعراض.

والأسلوب الصوفي جميل جداً؛ فهو شعري، ودقيق في تعابيره، ويختلف عن الأساليب النثرية، الفلسفية، والمنطقية؛ فالتعابير الصوفية تملؤها النشوة، والمشاعر الروحية، والعشق؛ فهي تفسح المجال للإنسان بالتخلي عن إنّيته لصالح الوصول إلى الحق، والفناء في الله (تعالى)، وهذا ما يجعل التعابير مختلفة؛ فهي تخاطب القلب، لا العقل.

للتصوف والعرفان أوجه نظرية، وعملية، وجمالية؛ أي أنه في النظرية العرفانية، يُمزَجُ السلوك بالذوق والمزاج. وعموماً، فالوجه الجماليّ للعرفان قوي جداً.

أثبت الملا صدرا أنه ضليع ليس في المدارس المشائية، والإشراقية، أو العرفان وعلم الكلام فحسب، ولكنه كاتب غير عادي؛ فهو يثبت من خلال رجوعه للمصادر؛ كالقرآن الكريم، والحديث، وكلمات العظماء؛ كابن عربي، وصدر الدين القونوي، والإمام محمد الغزالي، وعلاء الدولة السنماني، يثبت أنه لا يجارى في هذه الحقول؛ فهو بارع في اقتباسه آيات من القرآن الكريم، ومقاطع من السنة النبوية، ليزيّن كتابه بها. وهو غالباً ما يقتبس الآيات القرآنية بشكل كامل، ويشير أحياناً لهذه الآيات بالإشارة فقط. وقدرته على الاستفادة من الآيات القرآنية، وحسن اختياره للشواهد، وذوقه الرفيع، تُظهر بوضوح أنه كان حافظاً للقرآن عن ظهر قلب.

فيما يتعلق بالعرفان مثلاً، وبعد الحديث عن قَطْعِ بعض المراحل يقول: "ثم سافر في أرض الحقائق المقدَّسة المشرقة بنور الرب...".

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ والشُهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

وعن التطورات، والتغيرات التي تحصل للإنسان يقول: "في البدء كان الإنسان في مرتبة الهيولى الاولى التي هي قوة صرفة وإبهام محض، لا تحصل لها أية فعلية في ذاتها..." **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيئَاً مَذْكُوراً﴾** (٢). ثم وردت عليها الصور الجمادية، ثم النباتية، ثم الحيوانية. وعند شروق شمس النفس الناطقة، يتنبَّه من نوم الجمادية، وسِنَة النباتية، وغفلة الحيوانية، ثم أشرقت أرض الجسد بنور ربها. ويستشهد بآية ملائمة من القرآن الكريم **﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾** (٣). ثم يورد شاهداً آخر يلائم مراحل تطور الجنين: "أول عضو يتكوّن في الجنين هو القلب الصنوبري؛ لأنه أوّل ما يتحرك من البدن، وآخر ما يسكن منه". **﴿أَوَلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلعَالَمِينَ﴾** (٤). كما ورد في الحديث: إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن، ويمكن تأويله ببيت الله. ووجود بيت الله موجود في بكة الصدر الروحي، وهو تشبيه بمكان اجتماع الملكات والقدرات المتوجهة إليه. وكلمة بكة هنا مرادفة لكلمة (مكة)؛ فحرف "م" يمكن أن يقلب "ب". ورأى آخرون أنّ بكّة تعني مكان الاجتماع. ويشير صدرا إلى تبنيّه الرأي الأخير. والمكان هذا مليء ببركات إلهية من الفيض المتصل منه بجميع الوجوه، والقوة والحياة الساريتين منه إلى سائر الأعضاء، وهدى ونورٍ يهتدي به إلى الله.

هناك كثير من الإشارات الإلهية الواضحة في هذه الآية، وفيها أيضاً إشارات علمية، وحقائق وتعاليم؛ أنّ البيت الذي في بكة، هو مقام إبراهيم، ومحطته الفكرية، وهو البيت الآمِن لكل من يدخله، فالسالكون المتحيّرون في بيداء الجهالات، الذين يدخلون هذا البيت، يأمنون من إغواء شياطين المتخيّلة وعفاريت أحاديث النفس، واغتيال غيلان الوهم، وافتراس سباع القوى النفسانية وصفاتها. وهذا الكلام ليس تأويلاً هرمنيوطيقياً للآيات، بل هو نوع من التشبيه فحسب.

أسلوب الكتاب ليس مختلفاً فقط إذا ما قورن بأساليب الكتب الأخرى، ولكن تعابيره ومفرداته وعناوينه تختلف عن أمثاله من الكتب.

تشكل الفلسفة كما نعلم ثلاثة محاور رئيسية: الله، والعالم، والإنسان. وكذلك يعالج العرفان هذه المحاور الثلاثة، ولكن من وجهة نظر مختلفة لها مفرداتها ومصطلحاتها الخاصة. وهذا يعني أن العناوين المستخدمة في هذه المواضيع الثلاثة تختلف أساساً، فالملا صدرا يسمي الله في الفلسفة بواجب الوجود، وعلة العلل، والعلة الأولى، والمحرِّك الأول، وغيرها مِن المفردات. ويسميه في هذا الكتاب الحقيقة، والحقّ الأول، والحقيقة الحقّة، والحبيب الأول، والجمال السرمدي، ونور الأنوار، ومصدر الوجود، ومصدر الواقعية، والفيض، والنور، والفيَّاض، إلخ.

ولكي يثبت وجود الواجب، كان يلجأ في الفلسفة إلى برهان الحركة، والإمكان والوجوب، وامتناع الدّور والتسلسل. بينما نراه في العرفان يتبع طريقة العلم الحضوري، والوجدان الشهودي.

إنها مسألة الدائرة، دائرة الأصدقاء.

سلسلة انتشار عطرِ جدايل الشعر.

إذا تحدثوا عن التجلي والانعتاق.

قالت قصة بخاري لا تدع مجالاً للوسوسة.

العادة في الفلسفة النظرية والبرهانية، أنهم يعرِّفون الإنسان أنه: "حيوان ناطق، ضاحك، اجتماعي"، ويصفونه أحياناً بالحيوان المنتصب القامة، عريض المنكبين. والعقل عندهم ذو مراتب مختلفة من العقل الهيولاني، إلى العقل بالملكة، ومن العقل بالفعل، إلى العقل المستفاد.

وعند العرفاء: "الإنسان خليفة الله، ونشأة الاجتماع البشري، وخلافة الله، - هي سواد عين الوجود، ومجمع كل الحقائق والآيات، والكتاب المبين، ومسجود الملائكة".

وعند الحديث عن العالم، يستعمل العرفاء عبارات خاصة؛ فبدل الكلام عن "المعلول"، و"المخلوق الزماني"، و"الصنع"، إنهم يتكلمون عن "مرآة الحق"، و"شعاع نوره"، و"نور التجلي الذاتي للحق"، "شعاع جماله وجلاله"، وأشباهها من العبارات. "كل هذه الصور وانعكاساتها، ما هي إلا شعاع ينبثق من حامل الكأس في الكأس".

وهذا يذكر القارىء بأبيات للشبستري:

" العالم نور وجهه

تظهر فيه الحقيقة واضحة".

أو أبيات سعدي:

"يسعدني في هذا العالم من جعل

العالم سعيداً، وأحب العالم كله؛

لأنه عالمه".

يعود هذا التعارض في التعبير، واستخدام المفردات في الفلسفة والعرفان، إلى فهم كل من الفلاسفة والعرفاء لنفس الموضوع. وسنناقش بإيجاز واحداً من المواضيع الثلاثة: وهو الإنسان والموت، كما ذكر في الكتاب المتعلّق بمعرفة الله. فبعد الموعظة القصيرة، يبدأ كتابه كالتالي: "أغمض العلوم هو علم التوحيد، وأشرف المقامات نيل أسرار المكاشفات".

وسبب استعماله لهذه لكلمات في بداية الكتاب، هو أن معرفة الله من أعسر الأمور على الأفهام؛ فالإنسان دائماً حاضر لنفسه، ويعرف نفسه مباشرة، ومع ذلك، فهو لا يقدر أن يعرف نفسه، فكيف إذا ما تُرِكَ وحده ليعرف الوجود غير المحدود للحق (تعالى)؟

"لا تقدر أن تعرف نفسك

كيف يمكن أن تعرف الخالق؟".

"لقد كنت مع نفسك طوال عمرك، ولكنك لم تقدر على معرفتها، لم تكن مع الحقيقة ولو للحظة واحدة، مع ذلك، فأنت تتكلّم عن معرفتها".

تكلم ابن عربي، وصدر الدين القونوي، وبعدهم ملا صدرا، عن مرتبة الوجود الصرف كجوهر للأحدية، مستخدِمين عبارات كالهوية الغيبية، والغيب المطلق، وحقيقة الحقائق، والذات الأحدية؛ أي أنه الحقيقة اللامتعينة، والتي يشار إليها بالإطلاق.

"إنه هو الذي لا اسم له، ولا رسم، ولا وصف، ولا يمكن إدراكه أو معرفته"؛ إذ إنّ كلّ موجود له اسم ورسم ووصف، هو مفهوم من المفهومات الموجودة في العقل، أو الوهم، وهو ليس كذلك. "وهو الغيب المُحْضَر والمجهول المطلق".

وينقل عن صدر الدين القونوي قوله: "إن الإطلاق الصِّرف، هو صفة سلبية تستلزم سلب جميع الأوصاف والأحكام والنعوت عن كنه ذاته، وعدم التقيد والتحديد في صفة، أو اسم، أو تعين [٥].

وهناك حديث مشهور يتداوله العرفاء، ويشار إليه تكراراً في الكتب، وقد استشهد به الملا صدرا في كتابه هذا في موضعين مختلفين (ص ٢٥ وص ٦٣)، يقول الحديث: إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[٦].

وبالطبع، كما يقول الملا صدرا، فإنّ المراد من هذا العدد هو مجرَّد الكثرة. يقول الشيخ العطّار:

هناك آلاف الحجب.

من الظلمات والنور قبل الدخول.

وبحسب تأويل الملا صدرا، حُجُب النور هي الأشرف، وهي الممكنات الروحية، فبينما تمثل الحجب الظلمانية الموجودات الجسمانية الكثيفة. والسالكون إلى الله يتابعون سفرهم الروحي دون أن يلحظوا مبدأ التعطيل الذي يؤدي إلى (حياة سهلة)، كل بحسب قابلياته وقدراته يواصل مسعاه للتعرف عليه، لعل الحبيب يكرمه بنزع بعض الحجب عن وجهه.

ينبغي أنّ نلحظ أن كل الموجودات، بما فيها الإنسان، عندها نوع من المعرفة اللاواعية بوجود الأحديَّة. وهذا النوع من المعرفة بسيط ولا يمكن تعريفه.

والمعرفة المركبة التي تشكل المعرفة الواعية بالحق؛ أي المعرفة المصحوبة بإدراك المعرفة، إما عبر الكشف - منهج العرفاء والصديقين -، وإما عبر البرهان - منهج العقليين الذين يتفكرون بصفاته وأفعاله -، غير متوفرة لكل الموجودات.

إن ما يحدّد معيار الالتزام، هو هذا النوع من المعرفة نفسه، ومعرفة فائدة إرسال الرسل مرتكزة عليه. وفي هذا النوع من المعرفة، يمكن الخطأ والصواب. وقواعد الإيمان والكفر، والفرق بين درجات التصوف، يتعلقان بهذا النوع من المعرفة. بينما في النوع الأوّل (البسيط) لا مجال للخطأ.

معرفة الحق موجودة في طبيعة الوجود،
والعِلم بالعِلم، هو العلم العقلي.

يتنقل السالكون في هذا الطريق بين عدد من الجبال، ويحملون زاداً متنوعاً. بعضهم يحاول معرفة الحق من خلال الخلق، وعن طريق البرهان، وهؤلاء لن يفلحوا في الحصول على مرتبة العلم الحقيقي. والبعض الآخر، وهم أهل الله، لا يلتفتون إلى الخلق، ولا ينظرون إليهم كواسطة. إنهم يعرفون الحق بالحق.

تنتقل المجموعة الأولى من العالم الأسفل إلى العالم الأعلى، بينما تنتقل المجموعة الثانية من العالم الأعلى إلى العالم الأسفل. الطريقة الأولى هي طريقة الذين **﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ﴾** [٧]. **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾** [٨]. لكن الطريقة الثانية هي طريقة الصديقين، يستشهدون بالحق، وليس للحق، فلا يتخذون الموجودات شهوداً لهم، بل يعتبرون الحق هو الشاهد، ويعرفون الوجود بالوجود مباشرة، وليس عبر الممكنات. يقول تعالى في آخر الآية: **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾**[٩]. أو ليست حقيقة أن الله على كل شيء شهيد، تغني عن البرهان؟ وأولئك المتيمون، ومحبو الحق المذكورون بحديث قرب النوافل.

والسر في هذا الأمر، أن المعرفة الحقيقية بالحق لا يمكن اكتسابها بالبرهان، بل إن المعرفة البرهانية هي التي تُكتسب بمعرفة الحق، وهي ليست كما يقال في العلوم النظرية والبرهانية؛ حيث الادعاء أنّ العلم بالعلة يأتي بعد العلم بالمعلول. وهكذا يُكتسب العلم بالعلة من خلال العلم بالمعلول. وأما ما يمكن معرفته من خلال العلم بالمعلول المعين، فلا يوجب العلم إلا بالعلة المطلقة، لا بخصوصها. وهذا البرهان ليس كاملاً، والعبارة الدقيقة والصحيحة، هي أن المعلول ليس إلا نحواً خاصاً من تعيّنات العلة وشأناً من شؤونها. فمن عرف حقيقة العلة عرف شؤونها وأطوارها، بخلاف من عرف المعلول، فإنه ما عرف علته إلا بهذا النحو الخاص؛ بالمرايا المتعدّدة التي تختلف بامتداد حقول رؤيتها، ومسافاتها، وتقعّراتها، وطلائها إلخ. فكل من يلقي نظرة على هذه المرايا، سيرى وجهه بحسب ما تعكسه تلك المرايا، وهو بالطبع لن يرى وجهه الحقيقي.

وباختصار، لا يستطيع العقل فتح طريقه باتجاه تلك المملكة المقدّسة، ويحصل على العلم الحقيقي عبر مجرد التفكير البرهاني. أضف على ذلك، أنه لا يمكنه رؤية

نور جمال الأحدية.

والعرفاء بخلاف الفلاسفة، لا يسعون لكسب المعرفة الحقة عبر المقدمات، والتعاريف، وقواعد القياس، والمفاهيم، والأحكام. إنهم يسعون لاكتساب العلم بالحق من خلال القلوب الخالصة، والطبائع الصافية، والتوبة والتسليم. ﴿**إلا مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلبٍ سَلِيمٍ**﴾ (١٠) "اعرف انهم عرفوا الحق بنور الحق الجلي، ووصلوا إليه، لا بقوة الأقدام والحجة، والبرهان، ولكن بخلع النعلين، ورفض الكونين".

هذا الصنف من المعرفة مختص بالعظماء القريبين من الحق، ولا يصله إلا الشهداء، والصديقون. والسبب يكمن في أنّ هذا الصنف من المعرفة، لم يطبع إلا بقلم الحقّ الأول في ذاك القلب السليم المستقيم. هكذا قلب مطلي بطلاء الإيمان يخشى الله من التعلق بهذا العالم، ويسعى لتركه بكل متعلقاته.

إن معرفة الحق لا يمكن تحصيلها إلا عن طريق العرفاء؛ أي طريق معرفة الحقّ بالحق التي تؤدّي إلى فناء السالك. وهي معرفة نشوة، ولا يمكن مقارنتها مع النوع الآخر من المعرفة.

والذي لا يصل إلى الوحدة الحقة، سيكون ضحية التشبيه، أو التعطيل.

ما يعنيه الملا صدرا أنه يوجد بين البشر قلة قليلة يمكن أن تخطو خطوات أكبر وتصل إلى القمة، وتحصل على مرتبة القرب، وحتى مرتبة الوحدة والفناء. ويبقى الآخرون في مراتب هوى الحس والخيال، ولن يستطيعوا الإيمان بأكثر من إله وهمي، ولن يتخطّوا بذلك حدود التشبيه.

وقد يجتاز العقل بعض المراتب الأولية؛ حيث يتجاوز البديهيات. فالحق ليس معلولاً ولا علة له حتى يمكن إثباته عن طريق إثبات علته. والطريق المفتوحة أمام العقل، وهي طريق البراهين البعدية، لا يوصل إلى معرفة، ولا يوصل العقليين إلى العلة، فلا مجال للحديث عن الحس والخيال، وأنه وجودٌ لا ند له ولا ضدّ. ولا يمكن إدراكه من خلال الأنداد والأضداد، وهذا مايؤدّي إلى طرح إشكالات كتلك التي طرحها ابن كمونة، وبعض المندسّين من أصحاب الأفكار الشيطانية التي أنتجت فهماً خاصّاً للمسألة.

كل هذه التناقضات الناتجة عن الفهم البشري وتعارضه مع معرفة الحق، يتعلق بآلية ملاحظة الانكشاف الذاتي للحق. ونكران هذه الأفهام لبعضها يتعلق بفوقية قوانين بعض العوالم على بعض، وعزل بعض المظاهر عن بعضها.

لهذا عندما ينكشف الحق (تعالى) للعقليين وللتنزيهيين واللاّمجسمين، وللذين يرون أنّ الله لا يوصف بالصفات البشرية، وغير الكاملة، حينئذٍ يقبلونه، ويبدأون بتمجيد الموجود المقدّس. ولكن القوى المجرّدة كالوهم، والخيال والنّفس التي لها جهة مادية تبدأ بالرفض؛ لأنها في حالة تفهم الحق فيها من خلال التشبيه والمحاكاة.

وعندما يصبح وجود الحق جلياً واضحاً من خلال الصفات الثبوتية، فإنّ القلب والنفس العاقلة يقبلونه. لأنها باعتبار صلتها وانتمائها للأجساد، هي متشابهة، وباعتبار تجرّدها عن المادة، فهي لا تقارَب. ولكن العقليين يرفضونها؛ إذ لا مجال لمقارنتها بعالم الأجسام.

ثمّة نزاع دائم بين العقل والوهم، فكلاهما يدعي السلطة لنفسه، وأنه لا ينقاد لغيره. يدعي العقل أنه محيط بإدراك الحقائق على ما هي عليها، لكن الأمر ليس كذلك؛ إذ إنّ العقل لايدرك إلا المفاهيم الكلية فقط، ولوازم الموجودات، وغاية معرفته هي العلم الاجمالي بأنه له ربّاً منزّهاً عن الصفات الكونية. والعقل محجوب عن شهود الحق ومشاهدة تجلياته وظهوراته بشكل مفصل. ولمّا كانت العقول الضعيفة قاصرة عن إدراك التجليات الإلهية في كل موطن ومقام، والنفوس الأبية الطاغية غير معظِّمة لشعائر الله، فاشتبهت عليهم الوجودات التي هي نفس فيوضات الحق، وأنحاء تجلياته بخواص الماهيات التي هي أمور برأسها وأصنام بحيالها، فعبدوها، ونسبوا إليها الوجود والإيجاد، ولم يعلموا أن الحق هو المتجلي في كل شيء, والمتخلي عن كل شيء.

ثمة محاولة من قوى الإدراك الجزئية للسيطرة وللتقليل من قيمة العقل في إدراك الكليات والصفات المجردة، فهذه القوى تطالب بالمكان، والأبعاد، والجهات، والألوان، والأشكال، وما يشبه ذلك؛ كلوازم مفهوم أي شيء. وهذه القوى غير قادرة على إدراك المجردات.

وهكذا فإن نشأة العقل والخيال والحس تتلقى نوعاً من التجلّي يتناسب مع طبيعتها، وترفض التجلّيات الأخرى. وبالجملة، فكل قوة من القوى محجوبة بنفسها، لا ترى أفضل من ذاتها؛ كالملائكة التي نازعت في آدم (عليه السلام) .

وعليه، فكلٌّ يرى الحقيقة بحسب وجوده: "كلٌّ يرى نور الواحد بعين إنّيته، ويدرِك بحسب سَعَة وجوده".

إنّ أنبياء الله وأولياءه الكُمَّل، وبسبب تمكّنهم من الاتحاد بعالم القدس، ليسوا

محدودين في هذه العوالم السفلى، ولكنهم يسافرون في أُفُق لا ينتهي، ويرون الحقّ في جميع تجلياته، ولا ينكرون أياً منها. إنهم يدركون الأشياء بطريقة غير تلك التي يدرَك بها العقل والحواس.

معرفة الإنسان الكامل أرقى من معارف الآخرين، وكذلك معرفته بالأشياء هي معرفة من نوع آخر؛ لأن المعرفة الحقيقية بكل مرتبة من مراتب الوجود غير مقبولة إلا من خلال معرفة باريها، وهذا يفسِّر قاعدة أولئك الفلاسفة الذين يقولون: إن المعرفة الكاملة بالمعلول غير ممكنة إلا من خلال فهم العلة. وماهية المعلولات لا يمكن أن تُعرف إلا من خلال معرفة عللها. ولكن المعلول حقيقةٌ غير التعلق الربط. والمعلول بما هو معلول لا يعقل إلا مضافاً إلى العلة، ولا معنى له بهذا الاعتبار سوى كونه مضافاً، ولاحقاً، وأثراً، وتابعاً. كما أن العلة المفيضة على الإطلاق، إنما كونها أصلاً، ومبدأ، ومصموداً إليه، وملحوقاً به، ومتبوعاً.

وتنتهي سلسلة الموجودات من العلل والمعلولات إلى ذات بسيطة الحقيقة النورية الوجودية، لا يشوبها كثرة ولا نقصان، ولا إمكان أو قصور، وهي بذاتها فيّاضة بحقيقتها، وساطعة بهويتها، وبوجودها منشأ لعالم الخلق والأمر.

فتبين وتحقق أن لجميع الموجودات أصلاً واحداً هو الحقيقة، والباقي شؤونه، وهي الذات، وغيره أسماؤه ونعوته، وهو الأصل، وما سواه طوره، وما وراءه جهاته وحيثياته.

ثم يقول: "ولا يتوهمنَّ أحد من هذه العبارات، أن نسبة الممكنات إلى ذات القيوم (تعالى) تكوّن نسبة الحلول، هيهات! إنّ الحالية والمحلية مما يقتضيان الاثنينية في الوجود بين الحال والمحل، وها هنا؛ أي عند طلوع شمس التحقيق من أفق العقل الإنساني المتنّور بنور الهداية والتوفيق، ظهر أن لا ثاني للوجود الواحد الأحد الحق، واضمحلّت الكثرة الوهمية، وارتفعت أغاليط الأوهام. والآن حصحص الحق، وسطع نوره النافذ في هياكل الممكنات". وهكذا مهما كانت عوارض اسم الوجود، فإنه ليس سوى مظهرٍ من مظاهر الغني ذاتاً، وصفة من صفاته، وشعاعاً من إشعاعاته.

قلنا في بداية الكلام: إن في الوجود عللاً ومعلولات، وتوصلنا في نهايته إلى نتيجة، أنّ بين العلة والمعلول الوجود الحقيقي، هو للعلة فقط. وما المعلول إلا شأن من شؤونها، وعلية العلة في علاقتها بالمعلول يمكن إرجاعها في الواقع إلى تشؤُّن

العلة في الشؤون. وهذا لا يعني أن شيئاً غير العلة يفصل نفسه عن العلة ويستقل عنها، ثم يؤيد ملاحظاته بنصوص عربية.

ولكي يؤكد هذه المسألة الصعبة والعصية على الفهم، يشير إلى الجنيد البغدادي عند استماعه لحديث "كان الله ولم يكن معه شيء"، أنه قال: "وهو الآن كما كان"، واحداً ولا شيء معه.

وهكذا يرى أهل الكشف والشهود، أنّ الماهيات الممكنة ما هي إلا تجليات وظهورات للحق، وهي ليست موجودة في ذاتها، وما هو موجود. حقيقته هو الحق (تعالى)، وشؤونه والماهيات موجوديتها إنما هي بالعرض، بواسطة تعلقها بمراتب الوجود، وتطوره بأطوارها، وفي سياق برهانه، يشير إلى قصيدة الشيخ محمود الشبستري.

يوجد أرقام كثيرة للعد بها، ولكن هناك شيئاً واحداً يمكن أن يعد. فحقائق الممكنات باقية على عدميتها، أزلاً وأبداً، واستفادتها للوجود ليس على وجه يصير الوجود الحقيقي صفة لها، نعم هي تصير مظاهر، ومرائي للوجود الحقيقي، بسبب اجتماعها من تضاعيف الإمكانات الحاصلة لها من تنزلات الوجود مع بقائها على عدميتها الذاتية.

"في العالمين لم ينفصل الظلام عن الإمكان والله أعلم"[١٠].

لقد اقتبس هذا الشعر في رسالته هذه كما أنه اقتبسها في كتاب الأسفار، واعتبرها ترجمة حديث: "الفقر سواد الوجه في الدارين"[١١]. وهو يعزّز مدّعاه بشاهد من مشكاة الأنوار للغزالي عن العرفاء الذين أدركوا عن طريق التأمل أن "لا موجود سوى الله"، وأنّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾، وعبارة "هالك" لا تعني أنّ كل شيء سيزول في وقت من الأوقات؛ إذ إنه في الواقع كل شيء زائل أزلاً وأبداً. ولا شيء غير هذا يمكن أن يفهم، أنه كل شيء، إذا اعتبر من حيث ذاته فهو عدم محض[١٢] ... وهذا ما يعني أن الزوال ليس اسماً بل صفة، وهنا الرأي لا يخص الغزالي لوحده؛ إذ إن أهل الكشف والشهود جميعهم يرون أن الممكنات من حيث ذاتها ليست موجودة. والممكنات، كما يعبر عنها ملا صدرا، باطله الذوات، هالكة، مختلفة في هذا الكتاب كما في كتبه، ورسائله الأخرى. ويحاول القول: "ليس في الدار غيره ديّار"، "لا إله إلا هو"، و"لا موجود غيره". وإذا حملنا الوجود على غيره، فإنّنا نحمله من باب المجاز. وغيره من الأشياء ليس إلا متعلّقاً من متعلقاته، وشأناً

من شؤونه، وبحسب الحكماء، وجود كل شيء هو بالواقع تشؤن لتعلقه بالحق الأول، وكل ما نعتبره موجداً له، وجود نسبي متعلق بالحق.

ويضيف ملا صدرا أنه في كتاب الأسفار يبرهن أن الكائنات الموجودة، هي نور تجلي الحق، وشعاع جماله وجلاله، ولا يمكن إدراك شيء إلا إذا نُسِبَ إلى الحق (تعالى). فكما أن ذاته مبدأ وجود الأشياء عنه، فكذلك ذاته مبدأ شهود ذوات الأشياء. فهو (تبارك وتعالى) علة العلل، وغاية الغايات.

الهوامش:

(١) القرآن الكريم: ٣٩: ٦٩ .

(٢) القرآن الكريم ٧٦ : ١.

(٣) القرآن الكريم ٣٩ : ٦٩ .

(٤) القرآن الكريم: ٩٦.

(٥) الأسفار الجزء ٢ ص ٣٢٧.

(٦) هذا الحديث موجود في كتب التصوف، وعدد الحجب تراوح بين ٧٠ و٧١ و٧٠٠٠. وأوّلت الحجب النورانية والظلمانية بعدة طرق.

(٧) القرآن الكريم ٣:١٩١.

(٨) القرآن الكريم ٤١:٥٣.

(٩) القرآن الكريم ٤١ : ٥٣.

(١٠) القرآن الكريم ٢٦: ٨٩.

(١٠) مفاتيح الإعجاز ف شرح غلشان الراز ص ٨٦ وفي تعليقه على الأشعار يقول اللاهيجي: إنه يعني بالظلام ظلام ظلمة الإمكان في العالمين (أي عالم الأفكار وعلم الصور).

(١١) يوجد عدة تعاليق على هذا الحديث ولجعل هذا الحديث مستقلا بروعته قدم العلامة المجلسي في البحار عدة اقتباسات لمتصوفة "الوجه يعني وجود الممكنات والاستقلال يعني الاستقلال عن وجود وكمال الآخرن " .

(١٢) يعتبر بعض الصوفيين أن الممكنات اعتبارية، وكما نعلم أن المشائين يرون أن المجودات الخارجية الجزئية موجودات حقيقية، وبحسبهم يعتبر ابن سينا مصنف كتاب الشفاء على الطريقة المشائية أن الممكنات اعتبارية. الهيات الشفاء تعليق

القونوي المجلد ١، القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١ ص٤٨.